

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي أحمد بن عبد الرزاق حمودة- سي الحواس - بريكّة

معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية

الملتقى الدولي: البحر الأبيض المتوسط؛ مجال التنافس بين الإسلام والمسيحية عبر التاريخ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة

كلية أصول الدين- قسم العقيدة ومقارنة الأديان

الدكتور: مسعود بودربالة

أستاذ محاضر في الأنثروبولوجيا ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة

الإيميل: messaoudb04@gmail.com

الهاتف: 0668984278

* دكتورة علوم في الأنثروبولوجية - جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان

* دكتورة علوم في مقارنة الأديان- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة

المحور الثاني: الفتوحات الإسلامية في الحوض المتوسطي بين الأطر الدينية والمعطيات السياسية

عنوان المداخلة: الحروب الصليبية منطلقات ومصطلحات- دراسة أنثروبولوجية للخلفية تاريخية الدينية

الملخص:

اهتمت الدراسات التاريخية العربية مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين بمصطلح "الحروب الصليبية" يكاد يجمع الباحثون في دراسة علاقات الشرق بالغرب على استعماله، بينما عُييت البحوث في بعض المصطلحات الأخرى التي استخدمت قديما خاصة في المؤلفات الغربية، وهذه المصطلحات تكشف جوهر الخلاف المسيحي الإسلام عبر مراحل تاريخ الصراع، لذا كان من المهم بيان تلك المصطلحات التاريخية أنثروبولوجيا من خلال هذه الورقة البحثية، والتي ظهرت عبر مراحل تاريخية في الصراع الأوربي العربي في

البحر المتوسط، ومن أبرزها " الحج إلى القدس " و " الحروب المقدسة " و " حروب الفرنجة " و " حرب الاسترداد "

هذه المصطلحات الغربية المرادفة للحروب الصليبية، أستخدمت عبر مراحل تاريخية وكان لكل منا غايته التي أستخدم من أجله، ومن خلال هذا البحث سنحلل أنثروبولوجيا مفاهيم كل مصطلح منها، ومرحلته التاريخية، وماهي الأسباب الدافعة لتغير المصطلح عبر المراحل التاريخية؟

ومن خلال ذلك سنجيب عن أسئلة فرعية في البحث أهمها:

- ما حقيقة الحج إلى القدس؟ وماهي دوافعه ومراحلها؟

- ما دوافع الحروب المقدسة؟ والمقتضيات التاريخية لها؟

- ماهو الدور العرقي في ظهور حروب الانفرجة ودوره في ؟

- ما موقع حروب الاسترداد في الحروب الصليبية تاريخيا وجغرافيا؟

الكلمات المفتاحية: الحروب الصليبية، الحج إلى القدس، الحروب المقدسة، حروب الفرنجة، حرب الاسترداد.

نص المداخلة:

إن الأحداث التاريخية في أوروبا وخاصة التي ذكرتها المصادر المسيحية، والتي تم تحليلها تحليلًا أنثروبولوجيًا بتوظيف الآلية التاريخية واللغوية، تبين أن الحروب الصليبية اتخذت أسماء ومسميات عبر مراحل تاريخية، وهذا راجع إلى الظروف التي كانت تعيشها أوروبا في القرون الوسطى، وهذه المراحل حملت في ثناياها أسبابًا وأبعادًا انكشفت مع مرور الزمن، ومن أهم هذه التسميات:

أولاً: الحج إلى القدس "The Pilgrimage to Jerosalem":

لم يؤكد الانجيل أهمية زيارة القدس كونها فرضاً دينياً على المسيحيين إلا أن لها مكانة اخذتها من العهد القديم،¹ ثم تطورت الأهمية مع ظهور افكار جديدة منها أن الأماكن، التي شهدت حياة المسيح واستشهاده،² أو حتى استشهاد أحد القديسين تتمتع بقوة روحية تساعد على محو الذنوب.³

1- قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة ، مطابع السياسة ، (الكويت - 1990) ص 20 .

2- قاسم، ماهية الحروب الصليبية ، ص 23.

3- رنسيما ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العربي، دار الثقافة (بيروت، لبنان- 1967)، 249/1.

لم يكن الحج المسيحي فريضة مهمة، ولم يصل إلى أهمية الحج كما هو الحال إلى المقدسات، التي يفد إليها الحجاج المسلمون، بيد أن الحج المسيحي، بعد فترة من الوقت، أصبح جزءاً مكماً للممارسة المسيحية، فكان أهم ما تمخضت عنه رحلة القديسة هيلانة إلى فلسطين، أن وضعت هيلانة بذلك أسس الحج المسيحي إلى الأماكن المقدسة، وأعتبرت هي ذاتها أول حاجة مسيحية، وليسير على نهجها القديس جيروم، وشعب الكنيسة المسيحية كله من بعد.

هكذا صار الحج إلى تلك البقاع تقليداً قائماً لدى المسيحيين، وهم الذين حرصوا على أن يقتفوا أثر القديسة هيلانة، التي قامت بزيارة حج للأرض المقدسة في فلسطين.

كان هذا العنوان ومرادفاته هي النسبة الغالبة على المصنفات التاريخية للأوروبيين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ممن شاركوا في الحروب أو مدونو روايات المشاركين لاسيما مؤرخي الحملة الأولى كما يسميها الكتاب في العصر الحديث.⁴

تميزت الحملات الصليبية بالروح الدينية، على شكل حرب صليبية إذ قامت البابوية بشحن عواطف المجتمع الأوروبي المسيحي، وتألبي مشاعرهم المملوءة حقدا وكرهية للإسلام والمسلمين، ولإذكاء نار الصليبية داخل المجتمع الأوروبي المسيحي، وظفت مسألة الغفران من الذنوب والخطايا والتي انبثقت منها فكرة عسكرة الحج إلى الأراضي المقدسة، كما وظفت الظروف الاجتماعية السيئة والمستوى الفكري المنحط الذي أحاط بالإمبراطورية البيزنطية يومها قبل الحملة الصليبية الأولى، فكانت تلك أسبابا مباشرة لهذه الحروب.

ونتيجة الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي آلت إليها أحوال المجتمع تمكن رجال الدين من التغلغل بين عامة أفراد المجتمع رافعين شعار " الرحلة إلى الشرق باعتباره مكان صلب المسيح وقيامته، ومنارة للعلم والمعرفة، وموطنا للخيرات والحياة الكريمة.

وقد تبين أن الحركة الصليبية إفرازا لأحوال أوروبا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية في القرن الحادي عشر الميلادي، هذه الأحوال كانت بدورها نتاجاً للتفاعلات التي جرت على أرض الواقع الأوروبي، طيلة العصور الوسطى البكرة، وإذا كان بعض الباحثين يرى في الحركة الصليبية نتاجاً للتفاعل بين المؤسستين الرئيسيتين في أوروبا العصور الوسطى؛ الكنيسة والإقطاع، فإن هناك روافد جانبية خلقت الأفكار والقيم والمثل والظروف التي جعلت الحركة الصليبية أمراً واقعاً، ومن أهم روافد هذه الحركة الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين؛ فقد تطور الحج المسيحي من ممارسة فردية بفعل الشوق والحنين إلى الأرض التي شهدت خطوات المسيح إلى ممارسة تكفيرية تباركها الكنيسة وتنظمها لأولئك الخطاة الراغبين في التوبة.

4- الحري، سيد علي، الاخبار السنوية في الحروب الصليبية، 2ط، مطبعة المروءة، (القاهرة، مصر، 1911)، ص1.

حملة الفقراء (حملة الشعب) : وهى حملة قام بها الفقراء والفلاحين وجمهور من الفرسان قادها " بطرس الناسك الهيرميبي Peter the hermit " بناءً على الوعد الكنسي بالخلاص والفوز بالغنائم للتخلص من حياتهم البائسة والتحرير المقدس وكان ذلك في أبريل 1096 م.⁵

انطلقت أول حملة صليبية من القسطنطينية تحت قيادة " أدھيمار أسقف بوي Adhemar le puy " الممثل الرسمي للبابا في أغسطس 1096 م ومعه نبلاء فرنسا وفلمنج ونورماندي.

وقد أسفرت هذ الحملة عن احتلال القدس في 1099 م وقيام مملكة القدس اللاتينية، بالإضافة إلى مناطق أخرى، مثل إمارة "الرها" و"أمانة أنطاكية" و"طرابلس" بالشام.⁶

وقد مرت مرحلة الحج إلى القدس بأربعة عصور مميزة، نوجزها في الآتي:

1- العصر الاولى :

في القرون المسيحية الاولى حتى "مرسوم ميلان"⁷ 313 م كان الحج نادراً لأنه لم يكن فرضاً دينياً فضلاً عن الظروف التي يعانيتها المسيحيون عموماً من اضطهاد اثناء الحكم الروماني،⁸ لكن في نهايتها كان لبعض المواضع قُدسية مثل موقع رفات السيد المسيح، ومغارة المولد، والموضع الذي صعد منه المسيح إلى السماء.⁹

2- العصر الثانية :

بعد الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية في الدولة الرومانية في عهد الامبراطور قسطنطين (307-337م) دعم الديانة الجديدة في مركز دولة روما، وفي موطن الديانة بيت المقدس، إذ عملت والدته -القديسة هيلانة- على بناء كنيسة القيامة سنة 328م وكشفت عن مقدسات أخرى،¹⁰ مما أدى إلى إزدياد رحلات الحج إلى

5 - Flavio Febbraro and Burkhard Schwetje, How to read world history in art, Thames and Hudson, United Kingdom, 2010, p98.

6 - Matthew Bennett, The medieval world at war, Thames and Hudson, United Kingdom, 2009, p44, 96.

7- المرسوم الذي اصدره الامبراطور الروماني قسطنطين سنة 313م سمي "مرسوم ميلان" والذي اعترف من خلاله بالديانة المسيحية ديانة رسمية في الامبراطورية الرومانية ، (العربي ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت- 1968. ص41-51).

8- قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص20.

9- رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ، 1/63.

هذا تطور طبيعي مساير للتطورات المهمة التي شهدتها الامبراطورية، بل شهدت هذه المدة إقامة شخصيات مهمة، دينية أو غير دينية، في الاماكن المقدسة المسيحية، مثل "القديس جيروم" و " الامبراطورة إيدوسيا"، هذا من جانب وازدادت أهمية المقدسات الدينية - الاثار- التي ينقلها الحجاج إلى ديارهم سواء بيزنطة التي اصبحت مركزاً رئيساً لتجميعها، أو في الاديرة الكارولينية في الغرب الاوربي من جانب اخر.¹¹

رغم أن المسيحية لا تحتوي ضمن أركانها المعروفة في صورة التثليث: (التجسد، والصلب، والقيامة)، على فكرة الحج ومع ذلك فقد شعر المسيحيون منذ وقت مبكر بالرغبة القوية في أن يروا بأنفسهم تلك المواقع التي تنقل فيها الأنبياء والقديسين للتبشير بالدين الجديد، وقد قام الحج إلى بيت المقدس بدور كبير في حياة مسيحي الغرب منذ أزمان بعيدة ولم يقف بعد المسافة بين الأقطار وبين بيت المقدس حائلاً دون القيام به، بل كلما زادت الشقة (المسافة) بعداً أمام الحاج، وكلما زاد الطريق مشقة، زادت النفس اطمئناناً إلى غفران الخطايا ومحو الآثام.¹²

ولم يتوقف الحج عند فترة معينة من التاريخ بل استمر متواصلاً طيلة العصور المختلفة، واشتدت حركته عقب تشييد كنيسة القيامة.

3- العصر الثالث :

يبدأ من الفتح العربي الاسلامي (القرن الاول الهجري /السابع الميلادي) بدءاً من معركة اليرموك، وتحرير بيت القدس، إذ فرض المسلمون سيطرتهم على بلاد الشام، ثم بعد ذلك سيطروا على مصر وشمال افريقيا، وبعض جزر البحر المتوسط، مما جعل المسلمين مهيمنين على البحر المتوسط،¹³ وهذه التطورات أثرت في الحج لكنها لم تقطعه، إذ ذكرت بعض الرحلات التي تعود الى هذه المدة¹⁴ أن تزايد أعداد الحجاج سببه

10- سركيس خليل ، تاريخ القدس المعروف ب"تاريخ اورشليم" ، مكتبة الثقافة الدينية ، (القاهرة - 2001) ، ص101.

11 -Runciman , op.cit. vol. 1 . p- 30.

12- ماجد عبد المنعم ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، مكتبة الجامعة العربية (بيروت - 1966) ، ص 132-133.

13- سمث جوناثان رايلي ، الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية ، ترجمة : مُجد فتحى الشاعر ، ط2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة - 1999) ، ص 30 - 32.

14- رمضان عبدالعظيم، الصراع بين العرب واوربا من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، (القاهرة، مصر - 1983) ، ص39 ، 66 ، 74.

التنظيمات التي قام بها "شارلمان" فشيدت الاديرة والفنادق في فلسطين، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً بعد ضعف الدولة الكارولينية، فعادت القوى الإسلامية إلى العمل مما جعل الحج يواجه صعوبات جديدة،¹⁵ وقد بين "طارتولد" المبالغة الكبيرة لدور شارلمان في الاراضي المقدسة الفلسطينية، وأن مثل هذه الافكار وضعت لأسباب سياسية دعائية من لدن مؤرخي العصور الوسطى، لأنها تخالف تماماً أفكار ونظم الحكم والإدارة الإسلامية التي كانت متقدمة بمختلف المقاييس على نظم الكارولينية والأوربية.¹⁶

لكن الدراسات التاريخية المنصفة تشير إلى أن حكام المسلمين لم يقصروا في حماية الحجاج ورعايتهم، وتيسير رحلتهم، وإقامة عدد من الكنائس في القدس، بكل اللغات الأوروبية لخدمة الآتين من مختلف بقاع أوروبا، مثل كنيسة القديسة مريم، التي كانت تتم فيها الصلاة باللغة اللاتينية، إلى جانب إقامة عدد من المستشفيات لتوفير الرعاية الطبية للحجاج بخاصة مستشفى "هيئة الفرسان" التي جمعت بين العمل الخيري والنشاط العسكري، كذلك أقيم مستشفى للحجاج الألمان تحت رعاية هيئة الرهبان التوتون، ومستشفى لرعاية مرضى الجذام، تحت رعاية رهبان القديس "أليعازر"، وسمح صلاح الدين بعد استرداد القدس ببقاء عدد من الأطباء في هذه المستشفى لخدمة الحجاج تحت السيادة الإسلامية،

أما عن أهم المزارات التي أقبل عليها الحجاج خلال تلك الفترة، فأهمها كنيسة القيامة التي كانت تقع في وسط مدينة القدس، والتي لقيت عناية معمارية فائقة جعلتها من مفاخر مدينة القدس، بما يتناسب مع أهمية هذه الكنيسة في العقيدة المسيحية.

كذلك أقبل الحجاج على زيارة كنيسة "الصعود" بجانب عدد من الكنائس الأثرية التي تعود إلى العهد الروماني، ومجموعة كنائس جبل صهيون، وكنيسة السيدة مريم العذراء، كذلك هناك كنائس جبل الزيتون.

كما توافد الزوار على دير القديس "سابا" ودير القديس "يوثيموس الكبير"، كما تدفق الزوار على مدينة الخليل وكان من أهم كنائسها، كنيسة سانت إبراهيم، وكانت عين الدوار في الطريق بين القدس والخليل من المزارات المهمة.

ولهذا فإن عملية الحج لم تواجهها صعوبات سياسية، وإن وُجدت فهي ثانوية بل صعوبات تفرضها طبيعة العصر انذاك، من طرق و وسائل المواصلات، واللغة وإدارة الاماكن المقدسة في فلسطين، ولا ريب أن قوافل

15- رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، 1/69 .

16- رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية، 1/ 70.

الحجاج المسلمين كانت تتعرض لمثل هذه الصعوبات والمشاكل أيضا.¹⁷

4- العصر الرابع: ويُعرف بـ "عصر الحج الاكبر"¹⁸ (القرنين 4 - 6 هـ / 10 - 12 م).

حدثت تطورات مهمة في اوربا والبحر المتوسط في القرن العاشر منها تطور التجارة وظهور المدن التجارية، كان لهذه التطورات آثارا إيجابية على تنقل الحجاج بيسر نوعاً ما التنقل إلى الاراضي المقدسة في فلسطين، وكانوا غالباً ما يفضلون الطريق البري عبر القسطنطينية.¹⁹

أما التطور الآخر كان تبلور ارتباط الحج بالتكفير والتوبة عند الكنيسة الكاثوليكية، وكانت القدس واحدة من أربعة مواقع كان يؤمها المسيحيون الكاثوليك، فصارت عملية حج هذه المواقع هي نيل عفو الله وغفران خطايا وذنوب الحجاج كما اعتقد الكاثوليك.²⁰

تعززت عملية الحج إلى الاماكن المقدسة في فلسطين بالمكانة الدينية والتاريخية لمدينة القدس في الفكر المسيحي، والتطور الداخلي للكنيسة الكاثوليكية، فسعت البابوية لتتبوأ منصب السيادة الدينية والدنيوية (نظرية السمو البابوي)،²¹ والصراع مع الكنيسة الشرقية للسيطرة على العالم المسيحي،²² جعل القدس تحتل مكانة متفوقة على روما نفسها، لأن الاماكن الثلاثة الأخرى جميعها ضمن نفوذ وهيمنة الكنيسة الغربية، عدا القدس التي كانت تحت إشراف الكنيسة الشرقية، مع بقية الأماكن المقدسة التي يحكمها المسلمون، لذلك صوروا فيها الخلاص، فهي غاية بذاتها.²³

17- ابن جبير (ابو الحسن مُجد بن أحمد)، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الاثار الكريمة والمناسك، المعروفة بـ (رحلة ابن جبير)، (بيروت - 1986)، ص 35.

18- رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، 1/71

19- رفعت مُجد، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، (القاهرة - 1952)، ص42.

20- قاسم، الخلفية الايدلوجية للحروب الصليبية، ص 23 وما بعدها.

21- شيفل، فرديناند، الحضارة الاوربية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة: منير بعلبكي، (بيروت - 1952)، ص 35.

22- زيتون عادل، العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط1، دار دمشق (دمشق - 1980)، ص 330 - 335.

23- جلنسون إيتن، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة: امام عبد الفتاح امام، مكتبة مدبولي (القاهرة - 1996) ص436

انعكس تأثير ظاهرة الحج في المجتمع الغربي القروسطي، والنزعة الدينية الغالبة على الفكر الاوربي القروسطي، ومنه الفكر التاريخي، فجاءت الكثير من العناوين (الحج - أعمال الحجاج - القدس)، التي تعبر عن فلسفة العصر ونظرتها إلى التاريخ على أن له بداية هي مولد المسيح، وله نهاية هي نزوله لتحقيق مملكة الله في الارض - القدس -²⁴، وهو أمر يفسر الاندفاع الشعبي العام لتلبية دعوة البابا "أوربان الثاني" إذ اعتقد الناس أن في التوجه إلى بيت المقدس (الحج) السعادة الابدية ليكونوا سكان مدينة الله بتأثير أفكار "سان اوغسطين"، والأفكار الأخروية الألفية التي تقول أن نهاية العالم ستحل بعد الألفية الأولى لميلاد المسيح، وذلك بنزول السيد المسيح إلى الارض لتأسيس مملكة الله.²⁵

ثانياً: الحروب المقدسة - The Holy war

أول ما أستعمل مصطلح " الحروب المقدسة" عنواناً للحروب الصليبية كان في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، إحدى مسميات الحرب التي شنها الغرب الاوربي في القرون الاخيرة من العصور الوسطى على بلاد الاسلام.²⁶

يرتبط مفهوم الحرب المقدسة بالحج، لأن البابوية لم تجعل الحج مسلحاً إلا لتحريضها الناس على التوجه إلى فلسطين لتخليصه من الكفار - المسلمين - وفي خطاب كليرمونت برواية روبرت الراهب،²⁷ بين البابا "اوربان الثاني" Uraban II ما تعرض له المسيحيون في الشرق من قتل وإذلال، ثم قال: (فعلى من إذن تقع مهمة الانتقام من هذا، ومهمة الخلاص من هذا الموقف إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الامم - الفرنجة - ليسبغ عليكم نعمة المجد في السلاح، وجسارة في القلب، وقوة الجسد)،²⁸ ثم ذكرهم بأجداد شارلمان وغيره من ملوك الفرنجة، الذين دافعوا عن الكنيسة ونشروا المسيحية، فدعاهم لتخليص الضريح المقدس من أسره في أيدي المسلمين، وبيّن لهم أن حب الأبناء والبنات والزوجات والوالدين لا يمكن مقارنته بحب المسيح الذي يفوقها مئة مرة، ويُنال به الحياة الدائمة و وجههم (انطلقوا على طريق الضريح المقدس،، انقذوا

24- جلنسون ، روح الفلسفة المسيحية ، ص 436 - 440.

25 - Bainton Roland . H .Patristic Christianity . The Idea of history in the ancient near East ,(London -1955),pp. 217 - 219.

26- العربي، مؤرخو الحرب الصليبية ، ص 28 - 51.

27- قاسم ، الخلفية الايدولوجية ، ص 42.

28- قاسم ، الحملة الصليبية الاولى ، ص 71.

تلك الارض من ذلك الجنس المرعب، واحكموها بأنفسكم، لأن هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل كما يقول الكتاب المقدس أعطاهما الرب لبني اسرائيل)²⁹.

ولأن القدس مثلت للبابوية قطب رحي لأهدافها الدينية والدينيوية الداخلية والخارجية، فأوهمت الناس بجعل أمر التوجه إلى القدس أمراً إلهياً، كما جاء في خطاب البابا "أوربان الثاني" إلى المسيحيين الذي نقله "فوشيه دي شاتر" فيقول (لست أنا ولكن الرب هو الذي يمتك بكونكم قساوسة المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات ... إنني أخطب الحاضرين وأعلن لأولئك الغائبين فضلا عن المسيح يأمر بهذا أنه ستُغفر ذنوب كل أولئك الذاهبين هناك)³⁰.

أما " روبر الراهب فبين أن البابا خاطب الفرنجة (يا من اختاركم الرب وأحبكم كما تجلى واضحاً من

خلال أعمالكم الكثيرة)، ودعاهم للعمل على تخلص القدس الأسيرة: (لذا فهي تسأل وتصلي من أجل تحريرها وتناديكم روما لتهبوا لنجدتها والحقيقة تسألكم أنتم بصفة أساسية لمساعدتها لأن الرب كما ذكرنا من قبل قد أسبغ عليكم دون سائر الأمم مجداً فائقاً في السلاح، لذا سيروا على هذا الطريق للتطهر من خطاياكم وكونوا على ثقة في المجد الخالد لمملكة السماء)³¹، كانت لغة البابا متناغمة مع شعور الحاضرين ومعبرة عن غاياته لضرب الاعداء، لذا كانت استجابتهم فورية بهتافهم (هكذا أراد الله Deus le volt)، وبسرعة حُمل الصليب على الاكتاف.³²

وبالنظر إلى هذه الاستجابة السريعة يتبين أنها مؤامرة مدبرة سالفاً لتجيش العواطف، فشجع هذا الشعور البابا في توسيع دعوته الى المجتمع الغربي من خلال دعاة متحمسين أفضى إلى حماس وحراك ديني واجتماعي شمل معظم الغرب الاوربي تمثل (بالحملة الشعبية)³³، وتواصل بعدها تدفق الحجاج نحو فلسطين

طوال القرنين 12-13م/القرنين 6-7 هـ.³⁴

29- قاسم ، الحملة الصليبية الاولى ، ص71.

30- قاسم ، الحملة الصليبية الاولى ، ص75.

31- قاسم، الحملة الصليبية الاولى ، ص 78، 79

32- بروار يوشع ، عالم الصليبيين ، ترجمة وتعليق: قاسم عبدة قاسم ومُجد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (القاهرة -1999) ، ص 35 - 37.

33- رنسيما، تاريخ الحرب الصليبية، 1/79

ولأن التوجه نحو القدس أمر إلهي فقد صُيغ المنفذون للأوامر بقدسية المسيح أو الرب، وهو أمر نجحت فيه البابوية فكانت الحماسة الدينية على أوجها لذا نجد المصنفات في هذه الفترة تصف المتوجهين نحو القدس بـ (جنود المسيح - جيش المسيح - شعب المسيح - المؤمنون - جيش المؤمنين - حملة الصليب - جيش الرب - قادة الرب).³⁵

الثالث: حروب الفرنجة - اعمال الفرنجة - The Frank Wars :

مصطلح "الفرنجة" ومشتقاته من بين الأكثر المصطلحات الخاصة بالحروب الصليبية في هذه الحروب، حيث تتفق المشتقات كلها على أنّ الدور الرئيس المؤثر كان (للفرنج أو الافرنج أو الفرنجة أو الافرنجة)، ومصطلح الفرنجة هو الوحيد الذي اشترك به المؤرخون العرب والمسلمون والاوربيون الذين عاصروا تلك الحروب، لذا كان لزاما توضيح أسباب اختلاف هذه التسمية وما دور الفرنجة في تاريخ اوربا؟.

- أصل الفرنجة (Frank) وعلاقتهم بالدولة الرومانية :

من الشعوب التي كان لها التأثير الأكبر؛ كان للرومان وحضارتهم كرمز للحضارة الاوربية القديمة³⁶، وقبائل الجرمان الذين كان لهم الدور الأكبر بتاريخ اوربا الوسيط وحتى بدايات العصر الحديث.³⁷

وموطن الرومان ايطاليا ومنها امتد نفوذهم الحضاري إلى الاجزاء الجنوبية من اوربا، وبعض أجزاء غرب أوروبا³⁸، لكن امتدادهم الأكبر كان المنطقة المحيطة بالبحر المتوسط سواء في اوربا او اسيا او افريقيا³⁹، اما الجرمان فموطنهم الاصلي اسكندنافية وسواحل بحر البلطيق وشمال أوروبا لكن لم يكونوا مؤثرين إلا بعد أن انقسموا وتقدموا وانتشروا وسط وغرب اوربا.⁴⁰

34- بروار، عالم الصليبيين ، ص 19.

35- قاسم، الحملة الصليبية الاولى ، ص 76 ، 119 ، 125

36- براسنيد جايمس هنري ، العصور القديمة ، ترجمة داود خربان ، (بيروت، -1983) ، ص 488 ،

37- ديفز ، هـ. و ، اوربا في العصور الوسطى ، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، مشاة المعارف (الاسكندرية - 1958) ، ص 27

38 -Soltau .Roger H,An out line of European economic development ,Longmans Green and Co., (London- 1935). pp. 81-82

39-Hearnshaw, F.J.C. World History-Macmillan and Co.Ltd. (London-1930) pp.100- 104

40- ديفز ، اوربا في العصور الوسطى ، ص 27.

تعد الفرنجة من اهم قبائل الجرمان الفاعلةً طوال العصور الوسطى، وقد انقسم الفرنجة بعد هجرتهم من موطنهم الأصلي في القرن الثاني الميلادي إلى وسط وغرب أوروبا إلى قسمين الفرنجة الشرقيين (الريواريون)، والفرنجة الغربيين (السالين).⁴¹

والموطن الجديد جعل الفرنجة على حدود الامبراطورية الرومانية التي تحالفت معهم ومنحت زعماءهم بعض الامتيازات لحماية حدود الامبراطورية من غارات السكسون⁴²، ومجاورة الرومان جعلتهم يتأثرون بالنظم الرومانية الأكثر تحضراً على الرغم من احتفاظهم بعاداتهم القبلية التي وضعتهم موضع إزدراء الرومان كونهم برايرة⁴³.

وبضعف الامبراطورية الرومانية انحسر الرومان في ايطاليا، فمهد ذلك لسقوط روما عام 476م، مما سمح للفرنجة أن يكون لهم الدور المؤثر بعد ذلك⁴⁴.

استعمل العرب والمسلمون مصطلح الفرنجة بمعنيين عام، يشمل كل سكان أوروبا خارج الدولة البيزنطية، ومعنى خاص على أغلب منطقة شمال الأندلس تحديداً.⁴⁵

ويظهر أن الكتاب المسلمين كانوا على دراية بموطن الفرنجة (جزء من فرنسا حالياً) الذي اقاموا به اولاً في عهد (كلوفس) بعد ذلك اتسع نفوذهم مع اتساع الامبراطوريتين اللتين اقامهما الفرنجة (الميروفنجية⁴⁶

41- العربي، تاريخ أوروبا، ص120. يعني (الريواريون ، النهريون ، الساليون ، البريون) .

42 -Grant , A,J . A hisroty of Europe, (The Middle age) vol II ,(London – 1927),p.226

43- ديفز، أوروبا في العصور الوسطى ، ص50.

44 -Grant . op.cit.,vol.II, p 227

45- مُجَّد مرسى ، دولة الفرنج وعلاقتها بالامويين في الاندلس حتى اواخر القرن العاشر الميلادي ، مؤسسة الثقافة الجامعة ، (القاهرة ، 1981) ص 13 ، 14

46- بعد أن تولى كلوفس clovis حكم الجرمان(481م-511م) واعتناقه المسيحية الكاثوليكية وتحالفه مع البابوية للدفاع عنها، نشر المسيحية بين القبائل الجرمانية الوثنية فعدت جهوده (اداة الله) لخدمة المسيحية (ابراهيم احمد ، المجتمع الاوربي في العصور الوسطى، القاهرة - 1961، ص68-69).

والكارولينجية⁴⁷)، واستمرارها زهاء خمسة قرون (481-983م) لكن بقي موطنهم ومركزهم (فرنسا حالياً).⁴⁸

ومن اشهر ملوك الاسرة الكارولينجية "شارلمان" (768 - 814م) بل يعد اشهر شخصية أوروبية في العصور الوسطى.⁴⁹

هيمنت إمبراطوريته على أجزاء واسعة من أوروبا، ونال دعم البابوية ايضاً فتوج من قبل البابا " ليو الثالث - Leo III" (795-816 م) امبراطوراً في سنة 800م، لتظهر إلى الوجود الامبراطورية الرومانية المقدسة.⁵⁰

تعد عملية التتويج مظهراً من مظاهر تعاظم دور الفرنجة في اوربا من جهة، وتعاظم دور البابوية وتعزيز مكانة روما على حساب بيزنطة من جهة اخرى، بعد إبعادها من مناطق نفوذها في ايطاليا، فكان الفرنجة يرون أنهم يمثلون المسيحيين والرومان معاً.⁵¹

تعاظمت شخصية شارلمان في الوجدان الأوربي الوسيط لجهوده العسكرية على المسلمين في الاندلس واللومباردين، والسكسون والبافارين، أسهم بنشر المسيحية بين الأقوام الجرمانية الوثنية.⁵²

وصبغت اعمال شارلمان بالصبغة الدينية (نشر المسيحية) لسيادة الفكر الديني على كتاب العصور الوسطى وإعطاء شخصيته بعداً دينياً فقد ذكر أنه تولى الإشراف على الأماكن المقدسة في بيت المقدس وقدم الهدايا، والهبات لها، وأقام بعض المنشآت فيها، زيد على ذلك أنه حج إلى بيت المقدس.⁵³

47- الكارولنجيين (751-891م) charlemagna أسسها "بين الثالث" (القصور) الذي لقب بالملك (751م) بتأييد البابا (بونيفاس) الذي اوصى (بان صاحب السلطان الحقيقي يجب ان يحصل على اللقب)، لأن الاسرة قدمت خدمات جليلة للكنيسة وهي الدفاع عن اراضيها امام القوى الطامعة ونشر المسيحية بين الاقوام الوثنية الجرمانية.(ديفز، أوروبا في العصور الوسطى. ص 47، 48)

48- الخوند مسعود، المعجم التاريخي للبلدان والدول، ط2، مؤسسة الخدمات الطباعية ، (الكلس، بيروت- 1985) ص 323

49- العربي ، تاريخ أوروبا ، ص261.

50- دلماس كلود ، تاريخ الحضارة الاوربية ، ترجمة توفيق وهبة ، منشورات عويدات (بيروت - 1970) ، ص 15 .

51- زيتون، العلاقات السياسية والكنيسة، ص 328

52- ديفز، اوربا في العصور الوسطى، ص 52 - 57.

53- رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، 1/19

رسمت هذه الاعمال صورة نموذجية لشارلمان (للملك في العصور الوسطى) فكانت شخصيته مثار اهتمام حتى اتخذ الامبراطور "أوتو الثالث Otto III" (983-1002م) شارلمان رمزاً له فرسم رأسه على خاتمه وحج الى قبره في آخر سنة 1000 م فاعطت ذكرى شارلمان الامبراطورية بعض القوة جعلها تستمر في الحياة لاندفاع الناس لخلفاء شارلمان.⁵⁴

واستمرت ذكرى شخصية شارلمان بالظهور طوال القرن الحادي عشر بظهور انشودة رولان قبيل الحروب الصليبية التي تمجد حياة الابطال في عصر شارلمان وتضحياتهم وتعنى بها فرسان العصور الوسطى، فاعمال شارلمان وسمعته لا تحسب له فحسب بل حتى لمملكة الفرنجة، فساد اسم الفرنجة على القسم الاعظم من أوروبا خارج النفوذ البيزنطي كونها أكبر قوة ظهرت في غرب أوروبا، وهي تماثل الامبراطورية الرومانية في العصور القديمة فكان اسم الفرنجة محل فخر وتشريف للاوروبيين الغربيين (الكاثوليك).⁵⁵

وهكذا فان أغلب الذين لبوا دعوة البابا "أوربان الثاني Urban II" من سكان مناطق افرنجية وهي صفة لا تشمل فرنسا الحالية فحسب وإنما حتى وسط أوروبا مع امتداد الإمبراطوريتين السابقتين الميروفنجية والكارولينجية، وقد استعملت الدراسات الحديثة للمؤرخين المعاصرين للحروب مصطلح "الفرنجة" عند كلامهم عن مكونات الجيش المتوجه إلى فلسطين على الرغم من ظهور بوادر تمايز بين المجموعات العرقية المكونة للجيش لكنها لم تؤثر على وحدته.⁵⁶

الرابع- الحروب الصليبية – الحملات الصليبية – The Crusades :

ويعد ظهور مصطلح الحروب الصليبية في اواخر القرن السابع عشر في فرنسا نقطة تحول مهمة في الدراسات (الصليبية) وهو ليس من قبيل المصادفة بل استمرار تأثير الحروب في الذاكرة الفرنسية فالحروب بدأت الدعوة اليها في كليرمونت (فرنسا) والبابا الذي دعا اليها فرنسي (اوربان الثاني) ومعظم المشاركين في الحروب طوال قرنين من ملوك والنبلاء وعامة كانوا فرنسيين .⁵⁷

54- بارتولد، دراسات في تاريخ فلسطين، ص105

55- باراكلاف، هارلمان، الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعة ، (اسكندرية - 1989) ، ص216 - 218

56- العربي ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص408.

ومبتدع هذا المصطلح (الحروب الصليبية) لويس ممبرور كان فرنسياً فاعطى المصطلح عام (1675م) مغزى دلالياً اثر في نفوس الاوربيون لارتباطه بالصليب.⁵⁸

تعد هذه التعابير ومشتقاتها الاكثر شيوعاً منذ القرن التاسع عشر بل يكاد يكون المعبر الوحيد عن أهداف ومعنى الحروب التي شنّها الغرب المسيحي على الشرق الاسلامي حتى لو استعملت عناوين أخرى، فلا يمكن لأحد إلا أن يستخدم كلمة الحروب الصليبية _ الصليبي في الكتابات والترجمات.⁵⁹

ارتبط المفهوم بالصليب الذي يتمتع بقدسية في الفكر المسيحي منذ القرون الاولى لظهور وانتشار المسيحية، بعدما كان له دور في تنصير الامبراطور قسطنطين واعترافه بالمسيحية كديانة رسمية في الامبراطورية الرومانية ثم ما قامت به امة هيلانة بايجاد الصليب المقدس وبناء كنيسة القيامة، فتحول إلى رمز للمسيحين، فكان لا يغيب عن المراسيم والاحتفالات الملكية، ويعلنون أنّ الجيوش المسيحية هي رمز لقوة حقيقية محمولاً على صولجان في اثناء تقدمهم في المعارك.⁶⁰

كان الصليب حاضراً في الصراع الاسلامي البيزنطي وهو أمر طبيعي للدلالات المعنوية لمثل هذه الامور على نفوس الجنود اذ كان المسيحيون يرون فيه رمزاً للحياة وللخلاص وفداء السيد المسيح للبشرية جمعاء، وفي الأخير هو معهم في قتالهم لأعدائهم، فضلاً عن استعماله رمزاً لقوة تعدادها عشرة آلاف جندي.⁶¹

حافظ الصليب على قدسيته ورمزيته حتى بعد أن سيطر المسلمون على الاماكن المقدسة المسيحية كبيت المقدس، وأنطاكية و الاسكندرية.⁶²

فصورت الكنيسة هذا الطريق هو طريق السير على خطى السيد المسيح لتحقيق (مملكة الله) في الارض ومركزها القدس وآمن الناس بهذه الافكار وزاد من الاعتقاد بواقعيتها انتشار الافكار الاخرية في الالفية وقرب نزول السيد المسيح لتأسيس مملكته.⁶³

58- زايفوف ، الصليبيون في الشرق ، ص14.

59- عاشور سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية ، مطبعة لجنة البنان العربي ، (القاهرة ، 1963) ص 31

60- Eliede, Mircea , The Encyclopedia of Religion . Macmillon publishing company.(NewYork .- 1987), pp. 160-164.

61- زيات حبيب ، الصليب في الاسلام ، ط2 ، الكنيسة البولسية ، (بيروت ، 2005) ، ص 10 .

62- رنسيان، الحضارة البيزنطية ، ص125 - 126.

لم تظهر عملية التوسم بالصليب - Crusade إلا بعد مؤتمر "كليرمونت" (1095م/489هـ) حيث

تحولت الى ظاهرة لها معناها وهي التوجه لقتال المسلمين.⁶⁴

تطور الظاهرة (التصلب) جعل مشتقات كلمة الصليب تستعمل مع الحج والحجاج فصارت (الحج الصليبي)، و (حملة الحجاج الصليبية)، (الحروب الصليبية).⁶⁵

يعد ظهور مصطلح "الحروب الصليبية" في اواخر القرن السابع عشر في فرنسا نقطة تحول مهمة في الدراسات (الصليبية)، وهو ليس من قبيل المصادفة بل استمرار تأثير الحروب في الذاكرة الفرنسية، فالحروب بدأت الدعوة إليها في كليرمونت (فرنسا)، والبابا الذي دعا إليها فرنسي (اوربان الثاني)، ومعظم المشاركين في الحروب طوال قرنين من ملوك والنبلاء وعمامة كانوا فرنسيين.⁶⁶

ومبتدع هذا المصطلح (الحروب الصليبية) "لويس ممبرور" كان فرنسياً فاعطى المصطلح عام (1675م) مغزى دلاليّاً أثر في نفوس الاوربيين لارتباطه بالصليب.⁶⁷

الغريب في الأمر أن الكتاب الذي ألفه "ممبرور" لم يشتهر شهرة المصطلح، ونجد هناك عدة اسباب ادت إلى ان يصبح مصطلح (الحروب الصليبية)، هو الرمز دون غيره اهمها:

1. وجود صلة فكرية بين الحركة اليسوعية التي ينتمي إليها "ممبرور" فكانت أفكارهم الإقتداء بشخصية السيد المسيح ومحاولة بناء (مملكة المسيح)⁶⁸، ويبن دعوات البابوية في آخر القرن الحادي عشر على السير في خطى المسيح، لتأسيس مملكة الله في بيت المقدس⁶⁹، فحاول أن يبين أن تحقيق هذه المملكة ممكن، وهو ما نجحت فيه البابوية لحقبة من الزمن وللدفاع عن جهود البابوية لخدمة المسيحية ونشرها.⁷⁰

63- سميث ، الحملة الصليبية الاولى ، ص 66 - 70

64- جوانفيل، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار المعارف، (القاهرة-1968) ص311.

65- جوانفيل ، القديس لويس حياته ، ص 311، 312.

66 - Barker . op. cit. , p.13

67- زاينوف ، الصليبيون في الشرق، ص14.

68 -Hastings ,.op . cit , vol. IV , pp 500 -504.

69- قاسم ، الحملة الصليبية الاولى، ص75.

2. سياسة الملك لويس 14 الداخلية ضد الهجونت - بروتستانت فرنسا- كونه كاثوليكي متزمت وسياسته الخارجية القائمة على التوسع الخارجي في أوروبا؛ نجد الربط بين ظهور المصطلح والمشاريع الكبرى للملك لويس 14 وتصوير ملوك فرنسا كمخلصين في الدفاع عن البابوية والقضاء على خصومها، لخدمة المسيحية.

3. ظهور المصطلح بلغة تقبلها الفرنسيون أولاً ثم الأوروبيون ثانياً، جاء بتأثير الحركة الأدبية الفرنسية وقيام (حركة الصالونات الأدبية) التي من ميزات استعمال لغة اصطلاحية في نقاشاتها تسود فيها العبارات المزخرفة والرموز الأخلاقية.⁷¹

ويفصف (بول هازار)⁷² الحالة الفكرية في أوروبا في القرن 18م/القرن 12هـ قائلاً: (كان ينبغي وجود مراتب قيمة وفوق قيمتها سلطة مقررة ، وفي وقت استطاع الناس ان يؤمنوا بان السلطة التي اختارتها اوربا ملء هذه الوظيفة العليا هي فرنسا)، نجد هذا الاقتداء محل فخر واعتزاز للاوروبيين كافة. فكان الناس يكتبون بالفرنسية وتعبيراتها الخاصة في اوربا كلها من روسيا شرقا الى بريطانيا غربا.⁷³

وانتقل المصطلح "Croisade" الفرنسي بفضل التأثير بالنموذج الفرنسي إلى اللغات الاوربية في القرن الثامن عشر مثل الانكليزية "crusade" والألمانية.⁷⁴

4. الصراع الاسلامي - المسيحي الاوربي :- اثر بتعزيز مكانة المصطلح في نفوس الاوروبيين وهو يتمثل في جانبين: الاول الدور الذي تقوم به الدول الاوربية (البرتغال - اسبانيا - هولندا - بريطانيا - فرنسا) ضد المسلمين سواء في المغرب العربي والجنوب حتى الهند، اذ حاولت هذه الدول نشر المسيحية (الصليبية) بحسب مذاهبها مع نشر نفوذها العسكري والسياسي.⁷⁵

70- بارنز ، تاريخ الكتابة التاريخية، ص187.

71- لانسون ، جوستاف ، تاريخ الادب الفرنسي ، ترجمة محمود قاسم ، مراجعة د. سهير القلماري ، المؤسسة العربية الحديثة للطباعة والنشر ، (القاهرة - 1962) ، ص 204 - 205.

72- بارنز ، تاريخ الكتابة التاريخية ، 1/175.

73- هازار ، الفكر الاوربي ، ص198 - 199.

74- قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص12.

كان النموذج البرتغالي هو الذي اخذت به الدول الاوربية التي تلتها في افريقيا وسميت سياستهم وعملتهم (crusado) لوجود علامة الصليب عليها.⁷⁶

أما الجانب الثاني فهو : الصراع العثماني – الأوربي وبلغت فيه الدولة العثمانية أوج قوتها وأكبر تهديداتها لأوروبا في عقر دارها.⁷⁷

خلق هذا التهديد إدراكا لخطورة تقدم الربا – فأثار فيهم الحماس الديني، و(الصليب) رمز هذا الحماس الذي يجمع الأوربيين كلهم ، كما جمعهم في الحروب الصليبية ضد المسلمين، فأعطى لكلمة (crusade - croisade) وقعاً في الفكر الأوربي الملتهب دينياً عثمانيين وسط أو.

76 -Geddie, Williom, Chambers twelve century Dictionary (London – 1959) p.254.

77- الودنياني ، خلف بن دبلان بن خضر، الدولة العثمانية والغزو الفكري عام 1327م-1924م، ط2 مطابع جامعة أم القرى، (مكة المكرمة ، 2003)، ص 172.